جون لوك وآفاق التسامح

بوشنافه سحابه
طالبة دكتوراه/ جامعة وهران 2
تحت إشراف: اد بن مزيان بن شرقي/ جامعة وهران 2

الحاجة إلى التسامح وضعية طبيعية، وثقتها حالات، ووقائع الصراع بين بني البشر في كل العصور، والثقافات والحضارات التي مرت بها الإنسانية بتراثها الشفوي، والمكتوب وثائق ثقافية تقرر قوة الحاجة إلى التسامح، بحيث أصبح هذا السلوك مطلبا أساسيا ومهما لكل إنسان، ولكن غاية هذا المطلب اختلفت باختلاف الثقافات، والظروف والأوضاع و نظرا لأهميته هذا المطلب وخاصة في الوقت الراهن أعلنت الأمم المتحدة في عام 1993 عام التسامح، و كما قامت منظمة اليونسكو إلى إعلان وثيقة حول التسامح وقد نصت المادة الأولى من إعلان مبادئ حقوق الإنسان على أن "التسامح يعني الاحترام و القبول للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير ولصفات الإنسانية لدنيا"[1] ومن هذا يجب أن نقف و نوضح هذا المفهوم أولا:

لغويا:" جاء في لسان العرب: التسامح، السماحة والتسميح، وتعني لغة الجهود والسمح إذا جاء و أحظى بكرا وسحاء والمسامحة هي المساهلة[2] .. وتعني كذلك القبول، التساهل، الجود، العفو، التنازل وهذا التنوع في المعاني إنما يدل على اختلاف الثقافات و الحضارات....

أما إذا رجعنا لهذا المفهوم اصطلاحا فنجد معناه في الفلسفي لابن مذكور أن التسامح "سعة صدر تقترح للآخرين أن يعبِّروا عن آرائهم، ولو لم تكن موضوعا تسليم أو قبول ولا يحاول صاحبها فرض آراءه الخاصة على الآخرين أما على التسامح الديني فهو احترام عقائد الآخرين".[3]

أما المعجم الفلسفي أندريه لالاند:"ولدت كلمة التسامح في القرن السادس عشر من الحروب الدينية بين الكاثوليك و البروتستانت و بالعكس، ثم صار التسامح يرتجي اتجاه جميع الديانات في كل المعتقدات، و في آخر المطاف في القرن التاسع عشر شمل التسامح الفكر الحر"[4]

أما الأصول التاريخية لمفهوم التسامح فهي تعود إلى أسس دينية وهذا ما نقرأه في جميع الديانات سواء السماوية أو غير السماوية، و كذلك أسس فلسفية وهذا ما نلمسه في اهتمام الفلاسفة من قرون

---

[1] المادة الأولى من إعلان حقوق الإنسان.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، لبنان المجلد الثاني طبعة 1 سنة 1997 ص: 25

[3] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطالع الأميرية القاهرة، ب، ط سنة 1403هـ/1973م مجمع اللغة ص44.

[4] اندريه لالاند ،موسوعة الفلسفة، المجلد الاول،منشورات عويدات،بيروت ، ط2 ،سنة 2001، ص146.

عديدة بحيث رأوا أنه أحد أسس النظام الديمقراطي الذي يتطور فيه المجتمع المدني و تنشأ فيه دولة القانون و الحق و احترام الرأي.

و إذا رجعنا إلى فيلسوفنا جون لوك، فإن المشروع النهضوي الذي قام به مفكري التنوير الأوروبي كان و لا يزال له التأثير على المجتمع، من خلال ما كتبه الفلاسفة في المجال السياسي و خاصة كتاب جون لوك في الحكم المدني الذي عالج فيه رفض الحق الإلهي للملوك، و نظرية فصل السلطات و أعطى القواعد الأساسية للديمقراطية، و قد كان هذا انعكاس لواقع و ظروف المجتمع الإنجليزي في القرن 17م الذي شهد صراعا حادا بين البروتستانت و الكاثوليك، و لكن أفكاره لم تتوقف عند هذا العصر و إنما كانت لها أبعاد سياسية عامة.

و كذلك كتابة رسالة في التسامح بحيث ألف جزأين في فترة 1661-1662م و التي حاول من خلالهما التأكيد على الحرية الدينية و فصل السلطة السياسية عن الدين، و تحدث فيها عن حرية الضمير و حرية العقل و حرية الفعل إذ يقول: "أنه ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية و الأمور الدنيوية".[1]

و لقد كان لجون لوك مرجعتين أساسين سياسية و فلسفية اللتان ساعدته في كتابة هذه المؤلفات الرائعة، أما عن المرجعية السياسية فقد كان اللورد شافتسبري السياسي البريطاني من أصدقاء جون لوك كذلك كان شخصية سياسية رائدة في انجلترا و هو الذي شجعه بأن يتجه بأفكاره إلى المسائل الدينية و المدنية التي تهم البلاد حتى أصبح يقال عنه:"لوك هو أكثر الفلاسفة حظا : فقد أكمل عمله في الفلسفة النظرية وهو أشد رجال السياسة و الفلسفة قوة نفوذا"[2]

فعلاقته بهذا اللورد كانت عاملا أساسيا في حياته و قد تركت انطباعا قويا في مساره السياسي، و جعلته شخصية بارزة آنذاك وإلى يومنا هذا.

أما بخصوص المرجعية الفلسفية فقد تأثر بأب المدرسة العقلية ديكارت 1596-1650م و بعد ذلك تأثر برواد المدرسة التجريبية و على رأسهم روبرت بويل، فقد بدأ لوك في دراسة ديكارت بعد تخرجه و بعدها صرح أن فيلسوف الفلسفة الجديدة التي اشتهر بها ديكارت أبو الفلسفة. كانت أكثر أهمية و أشد واقعية من التمارين المنطقية القاحلة و الجافة التي كانت يدرسها في جامعة أكسفورد و يعترف بذلك في أول خطاب له إلى شلنج في قوله "بإ عجابه بذلك المفكر المهذب و يقصد به ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، الذي كان أول من حرره من طريقه الغامض"[3]

---

[1] جون لوك رسالة في التسامح. ت ر منه أبو ستة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة واحد، سنة 1999، ص7

[2] سمير خليل و آخرون، التسامح بين شرق و غرب، ت ر إبراهيم العريسي، دار السياقي، ط1 - سنة 1992- ص 15

[3] د. ل إمام عبد الفتاح إمام، جون لوك و المرأة -6- " دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، ب ط ، سنة 2009، ص32.

كما يعترف بأن كتابات ديكارت هي من علمته كتابة البحث الفلسفي بطريقة واضحة بعد أن ترك تعليمه في أكسفورد، و ظل يعاني من الشعور باليأس فجاء ديكارت و حرره من مشاعر التشاؤم، و رغم هذا لم يتابع جون لوك مخلصه أو محرره بطريقة عمياء بل انتقد آراءه وفقا لمعايير تجريبية.

أما بخصوص المدرسة التجريبية فقد كانت الشخصية "الأكثر أهمية في تأثيرها على جون لوك من المنظور التجريبي، هو عالم الكيمياء الإنجليزي **روبرت بويل** الذي اشتهر بتجاربه الرائدة في خصائص الغازات"[1] كما أن صحبة جون لوك لبويل في ألمانيا جعلته يتأثر بشدة لمدى حرية العبادة عندهم، وتميزها بالتسامح الديني و ذلك من خلال إطلاعه على ممارسة أتباع لوثر، والكاثوليك لعبادتهم بكل، واحتمال بعضهم البعض و هنا يقول لوك:

"كل واحد منهم يسمح للآخر في هدوء أن يختار طريقه إلى السماء ولم ألحظ أي نزاع أو عداوة بينهم في أمور الدين"[2]

لقد رأى جون لوك أن التسامح هو الحل العقلاني الوحيد لحل مشكلات عديدة، وذلك بمضمونه و حدوده و مجالاته و علاقته الدينية والسياسية و الفلسفية، فالهدف من هذا الكتاب رسالة في التسامح للفيلسوف الوقوف على عدة أبعاد و يمكن أن نقسمها: إلى أقسام:

الأول: البعد الإنساني للتسامح حيث يتقاطع مع أبعاد أخرى مثل البعد الروحي والبعد القانوني والبعد الاجتماعي

الثاني: فتحدث عن التسامح و علاقته بالسعادة الأبدية و يندرج تحت هذا القسم وسائل التأسيس للتسامح الالتزام فالتسامح – التسامح و خلاص بالنفوس، التسامح و السعادة الأبدية.

الثالث الأخير فقد تحدث فيه عن التسامح و الدولة و علاقتهما و كيف يمكن أن نوازي بين الحقوق و الواجبات.

وبالرجوع إلى القسم الأول من "البعد الإنساني و الروحي للتسامح" نلمس فيه التأكيد على أن الاختلاف في الملل المسيحية ليس عيبا مادام الهدف واحد، الذي هو إرضاء الرب رغم اختلاف طرق العبادة، فالتسامح الحقيقي هو ميزة الكنيسة. و وظيفة الدين أو الكنيسة ليس فقط ممارسة الطقوس بل وظيفتها تنظيم الحياة البشرية و ذلك من خلال بدء المسيحي بتطهير نفسه و ذلك بمحاربة شهواته و غرائزه إذا لا يمكن له أن يهتم بالناس و بخلاصهم و هو منغمس في هذه الشهوات.

كما أن الدعوة للمسيحية لا تكون غصبا أي بالقوة أو القتل فهذا غير وارد في التعاليم الدينية، و إنما كل من يؤمن بالرسول و البشارة لابد أن تكون نفسه محبة و طيبة و تنتهج في دعوتها للمسيحية أساليب و طرق غير منافية مع دينه و لا يعتمد على السيف و التعذيب.

---

[1] المرجع السابق ص 32

[2] جون لوك، رسالة في التسامح ص 14.

"حيث كان النضال المسيحي الحقيقي يستند إلى السلام و الامتثال إلى خطوات المسيح و اتخاذ مثلا لهم، حيث كان مسلحا لا بالسيوف ولا بالقوة المستبدة وإنما بالسلام، والتسامح والأسوة الحسنة "فنحن نعرف أنه كان من السهل على المسيح أن يستخدم في انجاز هذه المهمة كتائب من جنود السماء"[1]

أما عن البعد القانوني فيشير إليه لوك في القانون المدني إذ يتجسد في الحاكم الذي يطبق القانون على الناس أجمعين و على كل فرد الخضوع له دون استثناء. فالحاكم له القدرة على إدارة شؤون المدنية و الحفاظ على حقوقهم و ليس دوره خلاص النفوس "خلاص النفوس ليس من شأن الحاكم المدين أو إنسان آخر، و ذلك أن الحاكم ليس مفوضا من الله"[2]

"إن سلطة الحاكم لا تمتد إلى تأسيس أية بنود تتعلق بالإيمان أو بأشكال العبادة استنادا إلى قوة القوانين"[3] و إذا تبادر بذهن أي فرد أن يتجاوز هذا القانون فلابد من عقابه.

أما بخصوص البعد الاجتماعي، إن تأسيس المجتمعات يتبعه دائما تأسيس للكنيسة فهو يعرفها بأنها "مجتمع حر ذو إرادة فلا أحد يولد عضوا في أي كنيسة"[4]

لذا يجب أن يكون أعضاء الكنيسة متماسكين و لهم الحرية التامة في الانضمام في المجتمع الكنسي بدون ضغوطات أو قوة قاهرة و هو يضع شروط في تأسيس الكنيسة أولها أن يكون لهم مثلا أعلى أو قدوة أو سلطة يتوارثونها من الرسل وهدف هذا المجتمع الديني هو إرضاء الله و نيل الحياة الأبدية، كما يجب خدمة الناس وتوجيههم إلى الطريق الصحيح دون ضغط أو قوة.

ويوضح جون لوك الطريقة الصحيحة التي يجب أن تنتهجها الكنيسة في تأسيس قواعد أساسية للتسامح و ذلك بالحق والابتعاد عن الاستبداد والقهر وأن تكون أفكارها نابعة من العقل و الدعوة بالنصيحة و ذلك لإصلاح المجتمع و خاصة المخطئين وليس للكنيسة الحق أن تضطهد أيا كان بسبب عقيدته فالحرية مكفولة للجميع في مجال الاعتقاد وكل شخص حر في اختيار مذهبه و هذه الحرية بطبيعة الحال تكون داخل المجتمع المدني فالمجتمع والكنيسة رغم اختلاف مهامهم يجب أن يعملا على سعادة المواطنين و ذلك بنشر التسامح و المحبة بينهم.

أما عن الالتزام بالتسامح فهو يؤكد عليه عند رجال الكنيسة ورجال السياسة حيث لكل سلطة اختصاصها المعين لا دخل بأي حال من الأحوال أن للأخرى به " طابع كنسي فيجب أن تكون مقيدة بحدود الكنيسة إذ ليس في إمكانها بأي حال من الأحوال أن تمتد إلى الشؤون الدنيوية لأن الكنيسة ذاتها منفصلة عن الدولة و من يخلط بين هذين المجتمعين كمن يخلط بين السماء و الأرض"[5]

---

[1] جون لوك المصدر السابق ص 22

[2] جون لوك المصدر نفسه ص 24

[3] جون لوك المصدر نفسه ص 26

[4] جون لوك المصدر نفسه ص 27

[5] جون لوك المرجع السابق ص 36

فلا يجب الخلط بين ما هو كنسي و مدني فليس من حق رجل الكنيسة معاقبة أي فرد خارج عن دينه و ليس من حق الدولة أن ترغم الناس على عقيدة معينة و لا تتدخل في عباداتهم و لا تتحيز لمذهب دون أخر و يجب فصل الحكومة عن السلطة الدينية.

كما أن خلاص النفوس من مهام الكنيسة و ليس للحاكم أي دخل فرجل الدين وحده هو القادر على توضيح الطريق الصحيح للوصول إلى السعادة الأبدية و ذلك بإرضاء الله.

في آخر قسم لهذه الرسالة يتحدث جون لوك عن التسامح وعلاقته بالدولة فهو يرى أن عدم اتفاق الشعوب في دين معين هو الذي يهدد قيام الدولة، كذلك الصراعات الدينية التي تحدث نتيجة تفضيل الحاكم لفئة دينية معينة فهذا يحدث التناحر بين الكنائس و المذاهب فالحل هنا أن تعطي الدولة نفس الإمتيازات المدنية لكل شعب دون تميز "يتآمرون و يحرضون على التناحر فليس الدين هو الذي يلهم بذلك في اجتماعاتهم و إنما المتاعب و الاضطهادات هي التي تدفعهم"[1]

ولهذا يجب على الكنيسة أن تساند مع الدولة و أن تحقق الحرية و المساواة تحت حكومة واحدة عادلة و هنا يصبح التسامح الديني عامل قوي في قيام الدولة.

أما في قضية الحقوق و الواجبات فلوك يرى بأن الكنيسة هي تجمع أو مجتمع حر فيجب أن توازن بين حقوق و واجبات الإنسان المتدين و الإنسان المدني، و أن لا تميز بين الفريقين و إذا كان هناك عقاب فيكون للفريقين دون تحيز."فكل إنسان يحاسب على أفعاله و ليس من المقبول أن يكون أحد الأفراد موضع شك أو معرة بسبب خطأ ارتكبه شخص آخر"[2]

ومن هنا نستخلص المجهود الفاعل الذي قام به الفيلسوف جون لوك من اجل أن يوضح الدور الهام للتسامح في قيام مجتمعات خالية من المشاكل السياسية أو الدينية و كيف يكون التسامح وسيلة رئيسة في الفصل بين المنازعات الدينية و الدنيوية.

---

[1] جون لوك المرجع السابق ص 60

[2] جون لوك المرجع نفسه ص 63